﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧﴾ [الحجر: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حثّ المؤمنين على الاعتبار بهلاك المنحرفين، والتّحذير من جرائمهم

لمّا أشار اللّه تعالى إلى الاستدلال بالتوسُّم الدالِّ على أنَّ للمدينةِ نبأً هو في غاية الغرابة، وأتبع ذلك سهولة الوصول إليها حثًّا على إتيانها؛ بقصد نظرها والاعتبار بها، والسؤال عن سبب كونها كذلك، قال تعالى مشيرًا إلى زيادة الحثِّ بالتأكيد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

المَعنى الإجْماليّ:

الإشعار بأنَّ آيةً واحدةً، تكفي المؤمنين، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم

يقول الحقُّ ﷻ: إنَّ في إهلاكِنا قَومَ لوطٍ، وإنجائِنا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ، لعلامةً ودَلالةً واضحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللّهِ مِنَ الكافرينَ، وإنجائِهِم من بيْنِ أيديهم سالِمينَ آمِنينَ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّذييلِ في السّياق الجليل:

جريان الجملة مجرى المثل، من بيانها المفصل

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، لمّا جاءت الجملة على معنى العموم وجاءت تاكيدًا لمفهوم قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، لأنَّ كون آثار المدينة المهلكة باقيةً يقتضي الاتّعاظ بها والازدجار عن التّكذيب والمعاصي، فلما جاءت على معنى العموم والكلّية خرجت مخرج المثل في حكايتِها واستقلالِها والتّمثيل بها، ويدخل فيها حكاية ما حلَّ بقوم لوطٍ دخولًا أوّليًّا.

المؤمنون يعتبرون بالآيات، والكافرون يرونها تاريخًا وآثارًا

سبب مجيء التّوكيد، في سياق الآية الرّشيد:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، جاءت الجملة متضمّنة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/78.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/99، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544.

ثلاثَة توكيدات: ﴿إِنَّ﴾ واللّام الموطّئة للقسمِ وتقديم المسند على المسندِ إليه؛ لتقريرِ اختصاصِ المؤمنين بالاعتبار بالآيةِ والانتفاع منها، فكأنَّه لا ينتفع منها إلّا المؤمنون، لأنَّ غيرَهم ينظرُ إليها على أنَّها مجرَّدُ تأريخٍ قديمٍ.

فائدة ﴿فِى﴾ في قوله ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾:

الظّرفية للتّنبيه إلى تعميق النّظر، في آياتِ الله الملأى بالعبر

لمّا كان حرف الجر ﴿فِى﴾ للظّرفية المكانيّة أفاد هنا أنَّ المشار إليه ظرفٌ للآيةِ قد احتواها؛ للتّنبيه إلى أنَّ الاعتبار بالآية يكون للمؤمنين، لأنَّه يحتاج إلى تفحّصٍ ونظرٍ في داخلِ المشار إليه على معنى الاعتبار والاتّعاظ، فمَن ينظر في ظاهر المشار إليه لا ينتفع، ولن يكون نظره سبيلًا إلى الهداية والإيمانِ.

دلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اعتبار المؤمنين بآيات الله رفعةٌ لهم

عبّرَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى عظيمِ ما ذكرَ من أمرِ المدينةِ وما فيها من آثارِ الخَسفِ والإمطارِ بالحجارَةِ المُحماةِ وكونِها بمرأىً من النّاس يشاهدونَها في ذهابِهم وإيّابِهم[1]، وعبّرَ باسم الإشارة الّذي للبعيد للإشعار بهول ما حدث للمدينةِ، وأنَّها تستحقُّ النّظر فيها، كما أنَّ في اسم الإشارة إشارةً إلى رفعةِ مكانةِ المعتبرين المتّعظين، وهم المؤمنون الذين ذكرهم في الآية.

نكتة تقديم الخبر على المبتدأ:

آيــة الــلــه في تأديب العصاة، جديرة بالنّظر لها، والاعتبار بها

قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه جُعل المسند جارًا ومجرورًا، فاستحقّ التّقديم على المسند إليه النّكرة ﴿لَـَٔايَةً﴾؛ للعناية والاهتمام بالمشارِ إليه، وأنَّه جديرٌ بالنّظر والاعتبار به، وليس في التّقديم تخصيص.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.

دلالة مجيء الصّفة في قولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاعتبار بآيات الله سببٌ للإيمانِ بالله ورسولِه وآياته

لمّا كان قوله ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صفةً لـ﴿لَأٓيَةً﴾، وكانت الصفة على معنى التّقييد دلَّ على أنَّ ما ذكر ليس آيةً لكلِّ أحدٍ، بل إنّما ينتفع منها المؤمنون، وأنّه سببٌ للإيمانِ باللّه ورسولِه، فإنَّه إذا أُخبرَ الكفّارُ أن سبب كون المدينةِ هكذا أنّ اللّه أمر بعض جنده فرفعها، ثمّ قلبها، ثم أتبعها الحجارة ثم خسف بها وغمرها بهذا الماء - الذي هو في القذارة وعدم الثمرة مناسب لأفعال أهلها - لأجل عصيانهم رسوله ﷺ، آمنوا حذرًا من مثل هذا العذاب إيمانًا بالغيب[1].

نكتة التّقييد بالصّفة في قولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

المؤمنون يرون العذاب انتقامًا من الظّالمين، لا وقائع تاريخيّة صمّاء

لمّا تقيّد الموصوف بوصف المؤمنين دون غيرهم، أفاد أنّ كُلّ من آمن باللّهِ وصدّق الأنبياء والرُّسُل، عرف أنّ ذلِك إنّما كان لأجلِ أنّ اللّه تعالى انتقم لأنبيائِهِ من أولئك المنحرفين الضّالّين، أمّا الذين لا يُؤمِنون باللّهِ، فإنّهُم يحمِلونهُ على حوادِثِ العالمِ ووقائِعِهِ[2].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

المتوسّم من المؤمنين أكثر تفرّسًا، وأعمق نظرًا من عوامِّهم

جاءت الآياتُ بلفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، وذكرت بلفظِ المفرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والسّرُّ فيه أنَّه جمع أولًا باعتبار تعدُّد ما قصَّ من حديث ضيف إبراهيم، ومجيء الملائكة لوطًا وتعرُّض قوم لوطٍ لهم، وإنكاره على قومِه، وما كان مِن إنجاء لوطٍ وأهلِه إلّا امرأتَه وما كانَ من إهلاك قومِه المجرمين، وقلب المدينة على مَن فيها، وإمطار الحجارة عليهم، وأيضًا من جهة غمرها بالماء بعد خسفها، ومن جهة كونه مخالفًا لمياه الأرض بالنتن والخباثة، وعدم عيش الحيوان فيه، وعدم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.

النفع به، ومن جهة فظاعة منظره[1]، فكلُّ آيةٍ منها تحتاجُ إلى توسّم ونظرٍ واعتبارٍ، وأفردَ في آيةِ المؤمنين باعتبار وحدة الضّمير في الآية التي قبلها ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ فالضمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾ مفردٌ، أي: إنَّ المدينة المقلوبة لبسبيلٍ ثابتٍ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها، وهذه واحدة من تلك الآيات، فلذلك جاء عقيبه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس لآياتٍ للمؤمنين[2]، أو يقال إنَّه جمع في آيات المتوسّمين لأنَّ التّوسُّم من الوسم وهو العلامة، ففي كلِّ آيةٍ ممّا ذكرَ علامةٌ تحتاج إلى نظرٍ وتفرّس، وأفردَ آية المؤمنين بالنَّظر إلى جهة وحدة تلك الآياتِ وهي الدلالةُ على الحقِّ والإيمانِ باللّه وبرسولِه[3].

وأيضًا من أسبابِ تخصيص اعتبار جمعِ الآياتِ بالمتوسّمين وإفرادِ الآية بالمؤمنين هو أنَّه لمّا ذكرَ جُمَلًا ومقدِّماتٍ من عجائب الآيات التي يجول فيها اعتبار المعتبر ويتَّسع له النَّظر، ويتوسَّم منها المتفرِّسُ مخائلَ الهلاكِ ومقدِّماتِ التَّلفِ لأولئك الأشرارِ، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المعتبرين النّاظرين الذين يتفرّسون في كلِّ آيةٍ ويتفحّصونَها ويدرسونَها، والمتوسِّم يبحث في تفصيلاتِ الأمور ودقائِقها فيرى المجموعِ بتفصيلاتِه، ولمّا بيّن أنَّ المدينةَ باقيةٌ بآثارِها دلَّ على أنَّها عبرةٌ وعظةٌ لمن يمرُّ بها أو يسمع عنها، والعبرةُ إنَّما ينتفع منها المؤمنون، وتعليق الحكم على المشتقِّ يفيد أنَّ إيمانَهم هو الذي يدفعهم للاعتبار بهذه الآية، وفيه إشعارٌ بأنَّ الإنسانَ تكفيه آية واحدةٌ للإيمان، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ سبب التّخصيص هو "أنَّ المتوسمين المتفكرين بين أيديهم الآيات الكثيرة يدرسونها، فكانت الآيات بالجمع موضع الدراسة والفحص، أما بالنسبة للمؤمنين فالأمر فيها هو العبرة، وهي أمر واحد مأخوذ من مجموع الآيات المتضافرة التي هي موضع الدراسة، ومع تعددها العبرة واحدة"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَمَه والحيرة:

التحيّر: هو التبلّد في الأمر والتردّد فيه، وأمّا العمه: فيكون في القلب، ويوصف به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/77.

(2) الإسكافي، درة التنزيل: 2/820، وأبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/292.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/190.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4102.

الرأي، وهو بمنزلة العمى في العينين، وينشأ منَ العمه التّردُّدُ والتحيّر بحيث لا يَهْتَدي العامهُ لطريقه ومذهبِه، فالعمه أشدُّ منَ الحيرة، وهو أخصُّ منها، إذ يلزم منَ العمه الحيرة ولا يلزم منَ الحيرة العمه، ولهذا علَّق اللّه تعالى عَمَهَهُم بالسّكرة، ولم يقل (في حيرتِهم يعمهون)[1].

العمه يكون في القلب، وهو أشدُّ منَ الحيرة

التّوسّم والتّأمّل:

التّوسّم: منَ الوسم: وهو الأثر والعلامة، والتّوسّم: هو التفرُّس في الشّيء بدقّة لعلامةٍ فيه، ويدلُّ التفرّس على الفطانةِ والتثبّت في نظر المتفرّس حَتَّى يَعْرِفَ سِمَةَ الشَّيْءِ وصِفَتَهُ وعَلامَتَهُ مع إصابةٍ في النّظر، فيتبصّر الحقيقة ويعتبر بها، وأمّا التأملّ: فهو النظر في الشّيء على سبيل التثبّت فيه، فهو من تركيز النظر على الشيء المتأمّل فيه وإطالة النظر فيه، وفيه معنى الانتظار، فالمتوسّم هو المتفرّس في الشّيء لعلامةٍ دالَّةٍ على معنى، وفيه تبصّر واعتبار وإصابة النّظر فيه، والمتأمّل: هو الذي يطيل النّظر في الشّيء، وقد لا يلزم منه اعتبار[2].

التّوسّم فيه اعتبار، والتّأمل قد لا يكون فيه اعتبار

المقيم والثابت:

المقيم منَ الإقامة على الشّيء، ويُعبّر بالإقامة عن الدوام في الموضعِ وعدم الانتقال منه، ففيه معنى طول اللبث، ولهذا يقال لمن يستوطن مكانًا ويدوم فيه على معنى الإقامة فيه هو مقيم، وأمّا الثابت فقد لا يكون فيه طول لبثٍ ولا إقامة على معنى الدّوام.

المقيم منَ الإقامة على الدّوام، ولا يشترط ذلك في الثّابت

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حير، عمه).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمل، فرس).